www.quranonlinelibrary.com

مفاتيح البحث العلمي في القرآن الكريم

د. حمزة حسن سليمان (★)

مقدمة:

الحمد لله الذي أنعم علينا بالقرآن، وجعله نوراً لنا في ظلمات هذه الحياة، وصلّى الله وسلم على النبيّ الأميّ الذي كان القرآنُ خُلُقَه وإمامه وشفاءه ونور قلبه، وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً.

يمثل العلم والبحث العلمي وتطبيقاته- بكل نواحيها - دوراً مهماً في تطور ورفاهية المجتمعات، ويمكن اعتبار إجراء البحوث العلمية مقياساً لتقدم الدول ونموها الاجتماعي والاقتصادي والتقني، وهذا يجعلها تتفوق عسكرياً وتكثر مساهماتها الثقافية والعلمية في الحضارة الإنسانية.

وقد شكل الإسلام منذ بداياته الأولى إطاراً مميزاً في هذا الاتجاه، فهو يشمل كل مجالات الحياة الدنيوية والأخروية، حيث يرتبط عضوياً بالدولة والسياسة والقانون والمجتمع، ويكتنف الحياة العامة والخاصة، الأمر الذي يجعله إطاراً ملائماً لدفع التنمية الشاملة والمتواصلة.

وتميز الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بتنمية العقل البشري والتركيز على تشجيع الإنسان ليمارس البحث العلمي ويأخذ من التدبر والتفكر والتمعن ديدناً لحياته، كما بيّن الإسلام الدور المهم لمن يعطي للبشرية وينهل من العلم والمعرفة، ورفع من مكانة العلماء والباحثين وذوي الخبرة والتخصص في تطور المجتمعات﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ فاطر: (١٤).

ولذلك، وانطلاقاً من قوله تعالى:﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق:(٥) يمم المسلون وجوههم شطر العلم والبحث والمعرفة، ونفرت طائفة منهم في شتى البقاع تنشر العلوم وتتبع أهل العلم والخبرة في مختلف التخصصات.

وبعد،،، فمعياراً للنظر والاعتبار، وميزاناً للبحث والإفتكار، وصقلاً للذهن، وشحذاً لقوة الفكر والعقل جاء هذا البحث-بعنوان: **مفاتيح البحث العلمي في القرآن**

(★) أستاذ مساعد بالجامعة ورئيس قسم التنسيق والبرامج والتأليف بالعمادة .

الكريم- لبيان سبق القرآن في مجال البحث العلمي.

أهداف البحث:

(١) خدمة الكتاب والسنة وتوثيق الصلة بهما دراسة وتدبراً وتطبيقاً.

(٢)تصحيح وضبط مسار الفكر الإسلامي المعاصر وفق الرؤية القرآنية.

(٣)تأصيل دراسات علوم القرآن من خلال منهجية موحدة ومشتركة.

(٣)صياغة نظرية متكاملة للمعرفة القرآنية بحسب التخصص.

(٥)وضع منهجية علمية تكون منطلقاً سديداً لدراسة مناهج البحث في القرآن الكريم.

(٦)تطوير مناهج البحث باستيعاب ما يستجد في مجال الدراسات القرآنية.

الدراسات السابقة:

ألف الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحمن العاقب كتاباً ضمن سلسة العلم والإيمان التي يصدرها المركز العالي لأبحاث الإيمان بالسودان بعنوان: في القرآن مفتاح البحث العلمي ولكنه ركز فيه على الجوانب الإعجازية للقرآن في مناحي مختلفة، ماعداه لم أقف على مؤلف أو بحث بهذا العنوان، ولكن توجهت عدد من الدراسات والبحوث للوقوف على مقاصد ومشكلات ومعوقات البحث العلمي في جانب من الجوانب، وباختصار شديد من هذه الدراسات والبحوث:

(١) واقع البحث العلمي بالجامعات- د.سر الختم عثمان، ورشة البحث العلمي- السودان: ٢٠٠٥م.

(٢) البحث العلمي ونظام التعليم والتنمية في اليمن- نعمان سعيد الأسودي، دور كليات التربية في الجامعات العربية في تطوير التعليم ما قبل الجامعي في الوطن العربي - بيروت ١٩٩٩م.

(٣) معوقات البحث العلمي من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس بجامعة الملك خالد، حمدان مبارك سعيد وكمال الدين هاشم، مجلة كلية التربية جامعة طنطا- العدد الحادي والثلاثين: ٢٠٠٢م .

(٤) كتاب: مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام- الدكتور عمار الطالبي.

(٥) كتاب: الإسلام وتنمية العلم والبحث العلمي- الدكتور يوسف يعقوب السلطان.

(٦) البحث العلمي في الجامعة المقاصد والمحفزات- الواقع والمطلوب- أ.د. عبد الله الزبير عبد الرحمن- الندوة العلمية: معوقات البحث العلمي- جامعة القرآن الكريم- أم درمان- السودان.

خطة البحث:

المقدمة: وشملت: **الأهداف والدراسات السابقة.**
المبحث الأول: وسائل البحث العلمي في القرآن الكريم
المطلب الأول: العلم.
القسم الأول: تعريفات ومعانٍ
القسم الثاني: استعمالات العلم في القرآن الكريم
المطلب الثاني: العقل.
القسم الأول: تعريفات ومعانٍ
القسم الثاني: مكانة العقل في القرآن الكريم
المطلب الثالث: التفكر والتدبر.
القسم الأول: معانٍ وحقائق
القسم الثاني: فوائد وثمرات التدبر
المبحث الثاني: غايات ومقاصد البحث العلمي في القرآن الكريم
المطلب الأول: تحقيق عبودية الخالق.
المطلب الثاني: بيان مظاهر قدرة الله تعالى.
المطلب الثالث: بيان مكانة العلم والعلماء.

المبحث الأول: وسائل البحث العلمي في القرآن الكريم:

المطلب الأول

العلم

القسم الأول : تعريفات ومعانٍ :

جاء تحديد العلم في اللغة والاصطلاح في كتاب مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام بقوله: "فالعلم في معناه اللغوي إنما سمي علماً لأنه علامة يهتدي بها العالم إلى ما قد جهله الناس، وفي الاصطلاح من العسير تحقيقه تحقيقاً يتفق عليه الباحثون في القديم، وفي عصرنا هذا أيضاً، وإن ذهب أبو الحسن اللبان إلى عدم الجدوى من تعريفه لأنه أظهر الأشياء، فلا معنى لحده بما هو أخفى منه، وإذا تصفحنا اليوم المؤلفات المختلفة، وقرأنا مصنفات المناهج، واطلعنا على المعجمات، فإننا بلا ريب نلقى صعوبة في الوصول إلى تعريف دقيق واضح للعلم، ... لهذا نرى رشارد فريدمن الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء سنة ١٩٦٦ يقف موقفاً

صريحاً من غموض مفهوم العلم ومعناه فيقول: اشتغلت بالعلم طوال حياتي عارفاً تماماً ما هو، ولكن الإجابة عن السؤال: ما هو العلم؟ هو الأمر الذي أشعر أني عاجز عنه!"[١].

وقد وردت تعريفات العلم بحيث يصعب حصرها إذ يعرِّف أصحاب كل تخصص العلم حسب ما يتسق ويتناسب مع تخصصهم، ولما كنا بصدد الحديث عن العلم باعتباره أحد مفاتيح البحث العلمي في القرآن الكريم فالذي يخصنا من هذه التعريفات ما يلي:

فقد جاء في الموسوعة العربية العالمية: " يأتي العلم في القرآن الكريم بمعنى القرآن والسنة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٢٠، وقد يأتي العلم مرادفاً للقرآن الكريم حسب تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾يونس:٩٣، ويأتي العلم بمعنى عِلم الدين، كما في الآية: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٢]النحل:(٢٧).

غير أن القرآن الكريم تضمّن أيضًا آيات تشير إلى العلم بمفهوم دنيوي يتصل بمعاش الإنسان، كتعليم الله سبحانه لآدم الأسماء كلها، وتعليم داوود استعمال الحديد، ومن ذلك تعليم الله سبحانه أنبياءه علوماً معجزة كتعليم سليمان منطق الطير، وفي قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق:(٥)، إطلاقية في الدلالة تشمل علوماً كثيرة تتصل بمعاش الإنسان وسعيه في الحياة الدنيا.

وقد وردت لفظة العلم ومشتقاتها في القرآن الكريم مئات المرات، "ولا غرو إذن أن يرد في القرآن المجيد ما يقارب من ثمانمائة آية تتحدث عن العلم ومشتقاته: علماء، يعلمون، تعلمون... الخ"[٣].

(١) مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام - الدكتور عمار الطالبي (١ / ١)
(٢) الموسوعة العربية العالمية - (١ / ٣)
(٣) الإسلام وتنمية العلم والبحث العلمي - الدكتور يوسف يعقوب السلطان (١ / ١٤)

القسم الثاني: استعمالات العلم في القرآن الكريم

إن أول آية قرآنية لامست قلب الرسول ﷺ كانت تحثه على العلم وأهمية طلبه، فقال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ العلق:(١-٥)، وكان الخطاب القرآني للنبي الكريم في دعوته للمسلمين إلى العلم غير محصور فقط في دراسات العقيدة والشريعة والآداب والفنون، وإنما يمتد إلى وجوب دراسات العلوم البحتة والتطبيقية الموصلة إلى معارف وحقائق الكون وقوانينه ومظاهره في عمليات متنامية وصولاً إلى منتهى الحقيقة المطلوبة في هذا الوجود وهي توحيد الله ﷻ، الواردة في قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ محمد: (١٩)، ومن ثم توظيف التخصص العلمي أياً كان مجاله لخدمة العقيدة والدعوة إلى الله"[1].

وجاء في كتاب الإسلام وتنمية العلم والبحث العلمي: " ولما كان العلم أفضل فعاليات الإنسان وأكثر أشكال الحضارة البشرية حضوراً وتمثلاً وأشدها إيجابية، وإن هذه الحقب المتعاقبة من تاريخ الإنسان وأنشطته ما كان يمكن اقتحامها ومحاولة دراستها إلا بواسطة مناهج للبحث العلمي، فالعلم والبحث العلمي ينتجان من العقل ويمثلان خيراً عميماً متاحاً للجميع، وليس حكراً على فئة دون أخرى"[2].

ولما كان العلم في القرآن ليس قاصراً على العلم الديني أو الأخروي أو عالم الغيب كما يزعم بعض من لم يفهم القرآن ولا تذوق طعمه، فقد استعمل القرآن العلم بمعناه المطلق كما ذكر أبو بكر بن العربي: " استعمل القرآن العلم بمعناه العام الذي يشمل كل علم فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ النحل:(٧٨)، في بداية خروج الإنسان إلى الوجود، وكذلك في أواخر حياته إذا بلغ عتياً أو أرذل العمر: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾ الحج:(٥)، وكلمة (شيء) وكلمة (علم) هاهنا نكرتان تفيدان العموم

(١) أبحاث المؤتمر العالمي الثالث للإقتصاد الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة - (١٧ / ١٢)

(٢) الإسلام وتنمية العلم والبحث العلمي - (١ / ٤)

المستغرق لعلم كل شيء.

واستعمل في العلم بظاهر الحياة الدنيا بكل جوانبها الطبيعية والإنسانية، أي العالم كله: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ الروم:(٧)، فهذا العلم الدنيوي مقابل للعلم الأخروي"[١].

واستعمل القرآن العلم في علم الحساب والفلك، فقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ يونس:(٥)، وكذلك قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾الإسراء: (١٢).

وتطبيقاً لنصوص القرآن الكريم الداعية للبحث العلمي في هذا المجال، نطالع ماقاله يمني الخولي في فلسفة العلم في القرن العشرين: "... فقد أدى اهتمام الإسلاميين بالرياضيات، وإعلاء شأنها إلى تناميها على أيديهم تنامياً يصعب تفسيره فقط بهذه النظرة الداخلية للنسق المعرفي فثمة عوامل خارجية في الحضارة الإسلامية دفعت إلى هذا، منها اهتمام العرب وأسلافهم العتيق بالتجارة وحساب الأنصبة والأرباح في البضائع والبيوع، ثم نظام المواريث الإسلامي، وأيضاً تعاظم جحافل الجيوش الجرارة وتوزيع رواتبها وغنائمها وحساب نفقاتها، ثم الرخاء الاقتصادي والتراكم المالي الذي تلا تكوين الإمبراطورية الإسلامية، ومشاكل حساب أنظمة الجزية والخراج والضرائب والزكاة، هذا فضلاً عن مشاكل عمليات المساحة وتقسيم الأراضي وتشييد المدن"[٢].

وعن الفلك فنجد تحديد مواقيت الصلاة والشعائر والأعياد الدينية تدفع الإسلاميين إلى اهتمام مكثف بالفلك، لاسيما وأن البيئة الصحراوية دفعتهم إلى الاعتماد على التقويم القمري بصعوباته في تحديد التواريخ سلفاً، وفي الوقت نفسه اهتموا بالتقويم الشمسي في الأمصار الزراعية التي دانت لهم من أجل تحديد أوقات

(١) العواصم من القواصم- أبو بكر بن العربي- تحقيق عمار الطالبي- دار الثقافة، الدوحة، ١٩٩٢، ص ٣٧١.

(٢) فلسفة العلم في القرن العشرين-يمنى الخولي. ديسمبر ٢٠٠٠.. سلسلة عالم المعرفة. العدد ٢٦٤. الكويت

جباية الجزية والضرائب والزكاة وفقاً لمواسم الحصاد، والمحصلة أن المسلمين استطاعوا تطوير علم حساب المثلثات، وتصنيع آلات فلكية لتعيين المواقيت والاتجاهات، وكانت من أدوات اكتشاف الأمريكتين وإثبات كروية الأرض، كل ذلك بتطبيقهم لتوجيهات القرآن الكريم الداعية لشحذ الهمم في سبيل الارتقاء بالبحث العلمي.

واستعمل القرآن العلم في معرفة مختلف مظاهر الطبيعة من الماء والسماء والثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام واختلاف ألوانها: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ فاطر:(٢٧،٢٨)، قال فيها الإمام القرطبي: " هذه الرؤية رؤية القلب والعلم، أي ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل... ويشير السياق هنا إلى علماء هذه الأشياء المذكورة ونظامها، فازداد هؤلاء العلماء بهذا العلم يقيناً، وأثمر ذلك رهبة وخشية من عظمته، وعجيب إتقانه، واختلاف ألوان موجوداته، فهو علم وذوق لهذا الجمال في الألوان أيضاً"[(١)].

واستعمل العلم في القرآن في تعليم الشعر، قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ يس: (٦٩)، وفي تعليم البيان والقدرة اللغوية في قوله سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ الرحمن:(٣،٤)، وفي تأويل الرؤيا، فقال: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ يوسف: (٢١)، وفي تعليم السحر عندما قال: ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ البقرة:(١٠٢)،وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ طه: (٧١)، الشعراء: (٤٩).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي)-أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي -تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش-دار الكتب المصرية – القاهرة- الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م- (١٤ / ٣٤١)

وفي مجالات التقنية الحديثة استعمل القرآن لفظ العلم في تعليم الصناعة في قوله:﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ الأنبياء:(٨٠).

وقد أشار القرآن إلى صناعات شتي، مثل صناعة الحديد فى الجانب العسكري، والجانب المدني، بقوله:﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ الحديد:(٢٥)، فقوله:﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يشير إلى الصناعات الحربية، وقوله: ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ يشير إلى الصناعات المدنية، وقد علّم الله نبيه داوود صناعة الدروع:﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ الأنبياء:(٨٠)،وقال:﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ سبأ: (١٠,١١)، ومثل ذلك: الصناعات الغذائية كما في قوله:﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ النحل:(٦٧)، ومنها: الصناعات المتخذة من الأنعام: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ النحل: (٨٠)، ومنها: صناعات التجميل والزينة:﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ الرعد: (١٧)، ومنها: صناعة السفن، وقد أجادها نوح عليه السلام:﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ المؤمنون:(٢٧)،﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾هود:(٣٨)، ومنها: صنعة البناء وقد تعلمها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وهما اللذان بنيا أول بيت وضع للناس:﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ البقرة:(١٢٧)، ومنها: صناعة السدود العظيمة كما فعل ذو القرنين: ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ الكهف: (٩٦)، ومنها الصناعات

التـي علمهـا الجـن لسـليمان: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾سبأ: (١٣).

وجاء استعمال القرآن للعلم في فضيلة العلم الذي يجب أن يتصف به القائد السياسـي والحربـي، بقولـه جـل شـأنه:﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾البقـرة:(٢٤٧). قـال القرضـاوي:" والعلـم هنـا يحـدده السـياق والمقام، وهو العلم بشؤون الحرب والفنون العسكرية، وإدارة المعارك، ونحوها مما تتطلبه القيادة الحربية"[١].

واسـتعمله فـي علـم الاقتصـاد الـذي يـؤدي إلـى الغنـى وكسـب الأمـوال والكنـوز، كمـا قـال تعـالى علـى لسـان قـارون:﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ القصص:(٧٨)، أورد السيوطي قوله فيها: " أخرج ابن أبي حاتم عن السدي: علم الله أني أهل لذلك"[٢]، وقال الطبري: " قال قارون لقومه الذين وعظوه: إنما أوتيتُ هذه الكنوز على فضل علم عندي، علمه الله مني، فرضي بذلك عني، وفضلني بهذا المال عليكم، لعلمه بفضلي عليكم"[٣].

وجاء استعمال العلم في القرآن الكريم في تعليم آدم أسماء الأشياء، أي القدرة العقلية على وضع الأسماء للأشياء ومعرفة حقائقها، فقال في ذلك:﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾البقرة:(٣١). قال ابن كثير في تفسيره لها: " هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من عِلم أسماء كلّ شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفعل على ذاك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم الله تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به

(١) مفهوم العلم وتكوين العقلية العلمية فى القرآن الكريم - (١ / ٧)

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي-المحقق: مركز هجر للبحوث- الناشر : دار هجر - مصر- ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م - (١١ / ٥١٠)

(٣)جامع البيان في تأويل القرآن-محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري -تحقيق: أحمد محمد شاكر-مؤسسة الرسالة-الطبعة الأولى:١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م- (١٩ / ٦٢٦)

عليهم في العلم"[1]. وقال تعالى في نفس هذا الاتجاه:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النمل:(١٥).

وفي تفصيلات أخرى استعمل القرآن العلم في تعليم كلاب الصيد والجوارح:﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾المائدة:(٤)، وفي علم منطق الطير، عندما قال على لسان سيدنا سليمان عليه السلام:﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾النمل:(١٦)، قال فيها الإمام البيضاوي في تفسيره: " تشهيراً لنعمة الله وتنويهاً بها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير وغير ذلك من عظائم ما أوتيه "[2].

وفي استعمال القرآن الكريم للعلم في كل هذه المجالات يتبين لنا - دون أدنى شك - سبق دعوة القرآن للبحث العلمي في المجالات كافة، وأنه وضع منهجاً قويماً، وفتح آفاق العلماء والمفكرين للبحث في هذه المجالات التي تطرق لها في معرض دعوته لضرورة أخذ العلم النافع الذي تسعد به الأمة وتستفيد منه الملة.

وعلينا أن ندرك بأن الإسلام هو الدين الذي أرسى المفاهيم الأساسية وحث على التزود من العلم والنهل من المعرفة للتيقن بأن وراء هذا الكون خالق صمد ولخدمة البشرية، وفي ذاك يقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

وقيمة المرء ما قد كان يحسنه * والجاهلون لأهل العلم أعداء**
فقم بعلم ولا تطلب به بدلاً * فالناس موتى وأهل العلم أحياء**

المطلب الثاني

العقل

القسم الأول: تعريفات ومعانٍ:

اختلف العلماء في تعريف العقل وحقيقته اختلافاً كثيراً، ولعل أجمع وأدق

(١) تفسير القرآن العظيم- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي -المحقق: سامي بن محمد سلامة-دار طيبة للنشر والتوزيع-الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م- (١ / ٢٢٢)

(٢) تفسير البيضاوى – ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي- دار الفكر – بيروت- (٤ / ٢٦١)

ما قيل فيه قول الإمام الغزالي ومن وافقه بعدم إمكان حده بحد واحد يحيط به، لأنه يطلق بالاشتراك على خمسة معان: "**أحدها:** إطلاقه على الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية وتدبير الأمور الخفية. **والثاني:** إطلاقه على بعض الأمور الضرورية، وهي التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. **والثالث:** إطلاقه على العلوم المستفادة من التجربة، فإن من حنكته التجارب يقال عنه أنه عاقل، ومن لا يتصف بذلك يقال عنه غبي جاهل. **الرابع:** إطلاقه على ما يوصل إلى ثمرة معرفة عواقب الأمور، بقمع الشهوات الداعية إلى اللذات العاجلة التي تعقبها الندامة، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً. **والخامس:** إطلاقه على الهدوء والوقار، وهي هيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه، فيقال: فلان عاقل، أي عنده هدوء ورزانة"[(١)].

ولخص ابن تيمية المعنى اللغوي والشرعي للعقل أحسن تلخيص فقال في الفتاوى: "العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً، يراد به القوة التي يعقل بها، وعلوم وأعمال تحصل بذلك، وهو علم يعمل بموجبه، فلا يسمى عاقلاً من عرف الشر فطلبه والخير فتركه"[(٢)].

ولم تُستخدم كلمة العقل في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة لتشير إلى عضو التفكير مطلقاً، كما لم ترد كلمة العقل على المصدرية في القرآن الكريم، وإنما استُخدمت الكلمة بصيغة الجمع على: يعقلون، وتعقلون، ونعقل، وعقلوه، ويعقلها، وذلك في تسع وأربعين موضعاً، ولم ترد بصيغة الماضي إلا مرة واحدة، ووردت في باقي المواضع بصيغة الحاضر أو المستقبل.

وجاء في المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام: "والمعنى المستفاد من هذه الصيغ غالباً هو لفت الانتباه للتفكير من أجل إدراك العاقبة واتخاذ خطوة نحو العمل، وهو بذلك يكون في معناه أوسع من مجرد التفكير، فنحن إذا فكرنا ننتج الفكرة، أما إذا عقلنا فندرك ما وراء هذه الفكرة من أبعاد متعلقة بالتصديق والعمل، فالسمة الأساسية للعقل وفق اصطلاح الكتاب والسنة هي إدراك العاقبة المنشودة

(١) انظر: المستصفى في علم الأصول-محمد بن محمد الغزالي أبو حامد- دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى ، ١٤١٣

(٢)مجموع الفتاوى- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني -المحقق : أنور الباز - عامر الجزار-الناشر : دار الوفاء-الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م- (١ / ٢٤٤)

والعمل لها والثبات على ذلك"[1].

ومما سبق من آراء العلماء في تعريفهم للعقل يمكن أن نخلص إلى تعريف جامع لهذه الآراء بأن العقل: غريزة وضعها الله في قلوب الممتحنين من عباده تابعة للروح موضوعة في الجانب الغيبي من قلب الإنسان لا نعرف كيفيتها، ولكن نتعرف على وجودها ووجود أوصافها من أفعال الإنسان في ظاهر البدن، فيقال هذا عاقل إذا فعل أفعال العقلاء، وهذا مجنون إذا لم يتصف بها، قال تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ الحج:(٤٦)، فالآية تدل على أن العقل موجود في القلب، قال الثعالبي في الجواهر الحسان: "هذه الآية تقتضى أن العقل في القلب وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ"[2].

القسم الثاني: مكانة العقل في القرآن الكريم:

من الوسائل التي دعا لها القرآن لسبر أغوار البحث العلمي استعمال العقل للوقوف على قدرة الله تعالى في الكون والتفكر في مخلوقاته، وأكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن جاء في الكلام على آيات الله وكون المخاطبين والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته ورحمته، كقوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾البقرة: ١٦٤، ويلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه، كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الأنعام:﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾الأنعام: ١٥١، وكرر قوله:﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أكثر من

(١) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام - (١٤ / ١٠٢)

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي)-أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت- (٣ / ٣٥)

عشر مرات كأمر لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقولـه: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾يونس: ١٦، وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة الملك: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك : ١٠، وفي معناه قوله تعالى من سورة الأعراف:﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٩، وقوله في سورة الحج:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ الحج: (٤٦)" [١] .

وكدليل على اهتمام القرآن الكريم بالعقل ورفع شأنه ومكانته نرى اهتمامه المتعاظم ودعوته المستمرة لرفع شأن العقل وتكوين عقلية مستقلة تضع الأمر موضع الاختبار والنظر إليه فى ضوء العقل، وبميزانه المستقل، ونحن ملزمون بما تهتدي إليه عقولنا، وما ينتهي إليه تفكيرنا، ولهذا شن القرآن حملة عنيفة على الجمود والتقليد فى كل صوره، يقول تعالي:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ البقرة:(١٧٠)"[٢] .

ودعا القرآن إلى تأسيس العقلية التي ترفض الظن فى كل موضع يطلب فيه اليقين، كما فى مقام تأسيس العقائد التى تقوم عليها نظرة الإنسان إلى الوجود، وأنكر على المشركين إتباعهم الظن فى هذه القضايا الكبرى التي لا يكفي فيها الظن، بل لابد فيها من العلم، أي العلم اليقيني، فقال: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يونس: (٣٦)

وكذلك نطالع دعوة القرآن الكريم إلى إنشاء العقلية الراشدة التي ترفض

(١) تفسير المنار- محمد رشيد بن علي رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب-١٩٩٠ م -(١١/ ٢٠٢)

(٢) مفهوم العلم وتكوين العقلية العلمية فى القرآن الكريم - (١ / ٢٠)

الهوى والعاطفة، فالهوى يعمي ويصم، وإتباع العواطف قد يضلل الإنسان عن الحق، ولاغرو أن جاء في الحديث الصحيح: « لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان »[1]، لأن انفعال الغضب يسد عليه منافذ الإدراك الصحيح لجوانب القضية المختلفة فيظهر حكمه غير سليم، ولهذا عاب القرآن على المشركين هذين الأمرين: اتباع الظن وهوي الأنفس معاً، فقال في شأن أصنامهم التي اتخذوها آلهة: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ النجم:(٢٣). وقال تعالي لداوود ناهياً له عن اتباع الهوى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ص: (٢٦).

وفي مقابل هذه العقلية المتبعة، توجد عقلية أخري مخالفة، لها مواصفاتها وخصائصها، وهي التي عمل القرآن بآياته المشرعة والموجهة على إنشائها، وصياغتها، وإبرازها لتقوم بدورها في الحياة، وقد سماها الشيخ القرضاوي بالعقلية العلمية - وقد أحسن في هذه التسمية - فقال عنها: "والعقلية العلمية في نظر القرآن: هي التي ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد، أو التسليم المطلق لما عليه السلف المعظمون، ولا تقبل أن تقلد هؤلاء أو أولئك فيما اعتقدوه أو فعلوه، ومن المقرر المعلوم أنه لا يمكن أن يزدهر العلم، وتتأصل جذوره، وتمتد فروعه، بل لا يمكن أن ينشأ علم صحيح إلا في مناخ نفسي وفكري يهيئ للعقول أن تفكر، وللأفكار أن تتفتح، وللآراء أن تناقش، ولصاحب الحجة أن يدلي بحجته، وهذا ما يعمل القرآن على إيجاده في الحياة الإسلامية، وبعبارة أخرى: يعمل القرآن بدعوته القوية، وبتوجيهاته المتكررة على تكوين العقلية العلمية المتحررة، التي لاينهض علم إلا على عاتقها، فهو يرفض العقلية الخرافية، ويرفض العقلية المقلدة ويرفض العقلية المتخرصة ويرفض العقلية المتبعة للهوي"[2].

جاء الإسلام لإصلاح هذه الأوضاع الفاسدة التي كانت سائدة في

(١) الجامع الصحيح (سنن الترمذي)-محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي- دار إحياء التراث العربي-بيروت- تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون– باب لا يقضي القاضي وهو غضبان -ج٣ /ص ٦٢٠- حديث رقم: ١٣٣٤

(٢) مفهوم العلم وتكوين العقلية العلمية في القرآن الكريم - (١ / ١٧)

المجتمعات، وتحرير الإنسان من الأغلال الجاثمة على عقله وفكره، وكانت مهمة القرآن هي العمل على إبطال القاعدة الخاطئة﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ الزخرف:(٢٢)، وتحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلي، وسيطرة التبعية العمياء، وتربيته على حرية الفكر واستقلال الإرادة، ليكمل بذلك عقله ويستقيم تفكيره وتتهذب قواه، فوجَّه القرآن الفكر إلى كل ما من شأنه أن يدعو إلى استعمال العقل والتدبر والتأمل حتى تزول تلك الحجب الكثيفة التي تحول بين العقل والرؤيا الصحيحة للأشياء، وليخلق أمة جديدة هي أمة القرآن العاقلة المفكرة الباحثة الدارسة التي تعلي من شأن العقل وتستخدمه في مختلف شؤونها، وتفتح أمامه آفاقاً غير محدودة لاستكناه حقائق الوجود في هذا العالم الكبير، ولقد اشتملت توجيهات القرآن العقلية على أصول ومبادئ عامة صلحت لأن تكون منهجاً فكرياً سليماً ومكنت هذه المبادئ والتوجيهات المسلمين من الاستفادة من تلك الدرة الإلهية التي منحها الله للإنسان وهي: (**العقل**) فنمته وجعلته يمارس الوظيفة الأساسية التي خلق من أجلها، وطالب القرآن كل ذي عقل بالنظر في عوالم السموات والأرض وما فيهما من الدلائل الواضحة، واستنهض العقول، ووجه الأفهام، وأيقظ الحواس، ونبه المشاعر، بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الرعد:(٤)،النحل:(١٢)،الروم:(٢٤)، وقوله:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ طه:(٥٤،١٢٨) وقوله:﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الرعد:(١٩)،الزمر:(٩).

وأننا موقنون بأن القرآن إضافة إلى تعدد إعجازاته، فإنه الكتاب السماوي الوحيد الذي خاطب العقل الإنساني والفكر البشري، وأن الله جلت قدرته قد ميز الإنسان وفضله عن سائر خلقه، بأن وهبه العقل للتدبر والتفكر والتأمل والتمحيص، فالقرآن الكريم في مجمل آياته يدعو إلى شحذ الهمم وتركيز البصيرة واستخدام العقل لتطوير منهجية حياة الإنسان.

المطلب الثالث

التدبر والتفكر

القسم الأول: معانٍ وحقائق:

إن تدبر القرآن هو أرفع صور تلاوته وترتيله التي جاءت نصوص القرآن

الكريم ببيان فضلها وثوابها، والتدبر هو الذي يساعد قارئ القرآن على النهم من خيراته وفضائله.

قال ابن منظور في لسان العرب: "التدبر لغة: دبر الأمر وتدبره نظر في عاقبته، واستدبره رأى في عاقبته ما لم ير في صدره، وعرف الأمر تدبراً أي بآخره، والتدبير في الأمر أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبر: التفكر فيه، ويقال إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهدي لوجهة أمره، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره والتدبير أن يتدبر الرجل أمره، ويدبره أي ينظر في عواقبه"(١).

وجاء تعريفهما في دستور العلماء "التدبر: النظر في عواقب الأمور وهو قريب من الفكر، والتفاوت بينهما أن الفكر بصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر بصرفه بالنظر في عواقب الأمور"(٢).

وقال الميداني: "التدبر: هو النظر في دبر الأمور أي عواقبها وهو قريب من التفكر إلا أن التفكر تصرف بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب، فالتدبر: التفكر ومادته تدور حول أواخر الأمور وعواقبها، وهو النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه، ومن هنا نفهم أن التدبر هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة"(٣).

وجاء تعريف التدبر والتفكر وحقيقتهما في كتاب التوقيف على مهمات التعاريف: " التدبر هو: التفكر باستخدام وسائل التفكير والتساؤل المنطقي للوصول إلى معان جديدة يحتملها النص القرآني وفق قواعد اللغة العربية، وربط الجمل القرآنية ببعضها، وربط السور القرآنية ببعضها وإضفاء تساؤلات مختلفة حول هذا الربط أو ذاك. وعلى ذلك فحقيقة تدبر القرآن: أن يقرأ المسلم كتاب الله بتأمل وتفكر وعناية وحضور، فيتأمل في أخباره ومواعظه، وأوامره ونواهيه، وأحكامه وآياته، وأن يعزم النية على العمل بما يؤمر به، وعن الانتهاء عما نهي عنه، وأن يتعظ بما

(١) لسان العرب- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي -دار صادر –بيروت-الطبعة الأولى، مادة: (دبر)٢٧٣/٤

(٢) دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)- القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري- دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - الطبعة : الأولى - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م- (١ / ١٩٤)

(٣)قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل- للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني-ط٢-دار القلم- دمشق: ١٤٠٩هـ، ص ١٠

فيه من المواعظ والأخبار، ويستحضر ما أخبر الله به عباده من أمور المعاد"[1].

وقيل في معنى التدبر: " هو الفهم لما يُتلى من القرآن، مع حضور القلب وخشوع الجوارح، والعمل بمقتضاه، ويكون ذلك بإطالة نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على فهمه وتعقّله، وأن يشتغل القلب في التفكير في معنى ما يلفظه بلسانه، فيعرف من كل آية معناها، ولا يتجاوزها إلى غيرها حتى يعرف مرادها"[2].

والمراد بالتدبر كما قال العلامة السعدي رحمه الله: "التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك من العمل والإتباع"[3].

وهناك كلمات مرادفة للتدبر وتأتي في معناه، كما قال ابن القيِّم: " ويقربُ من معنى التَّدبُّر، التَّفكُّرُ والتَّذكُّرُ والنَّظرُ والتَّأملُّ والاعتبارُ والاستبصارُ، وقد وردت هذه المعاني في القرآن في مواطن. وهذا يسمَّى تفكُّرًا وتذكُّراً ونظراً وتأمُّلاً واعتبارًا وتدبُّرًا واستبصارًا، وهذه معانٍ متقاربةٌ تجتمع في شيءٍ وتتفرقُ في آخر. ويسمَّى تفكُّرًا، لأنه استعمالُ الفكرةِ في ذلك، وإحضارُها عنده. ويسمَّى تذكُّرًا، لأنَّه إحضارٌ للعلمِ الذي يجب مراعاته بعد ذهولِه وغيبتِه عنه، ومنه قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠١. ويسمَّى نظرًا، لأنَّه التفاتٌ بالقلبِ إلى المنظور فيه. ويسمَّى تأمُّلاً، لأنه مراجعةٌ للنَّظرِ كرَّةً بعد كرَّةٍ، حتى يتجلَّى له وينكشف لقلبِه. ويُسَمَّى اعتبارًا، وهو افتعالٌ من العبور، لأنَّه يَعْبُرُ منه إلى غيره، فَيَعْبُرُ من ذلك الذي قد فَكَّرَ فيه إلى معرفةٍ ثالثةٍ، وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يُسَمَّى عِبْرَةً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴾ النازعات: ٢٦، وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ آل عمران: ١٣. ويُسمَّى تدبُّرًا،

(١) التوقيف على مهمات التعاريف-محمد عبد الرؤوف المناوي-دار الفكر المعاصر بيروت ، دمشق-الطبعة الأولى، ١٤١٠-١/١٦٧- تحقيق : د. محمد رضوان الداية

(٢) أوراق الملتقى الثالث لجمعيات تحفيظ القرآن بالمملكة - (١٦ / ٢٩)

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان-عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي- المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة-الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م- ١/١٨٩-١٩٠

لأنَّه نظرَ في أدبار الأمور، وهي أواخرُها وعواقبها، ومنه تدبُّرُ القول..."[1]

القسم الثاني: فوائد وثمرات التدبر:

دعا الله عزّ وجلّ عباده إلى التدبر فيما أنزله إليهم من آيات كتابه العزيز بصور متعددة، فبين أن هذا التدبر هو المقصود بإنزال القرآن، وأوجب تدبر كتابه العزيز بدلالة قوله:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ص: ٢٩، قال ابن كثير:" في هذه الآية بين الله أن الغرض الأساس من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر لا مجرد التلاوة على عظم أجرها، وقال الحسن البصري: "والله! ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآنُ في خُلق ولا عمل"[2].

وأنكر القرآن على من أعرض عن تدبره كما في قوله:﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ المؤمنون: ٦٨. وقال جل شأنه:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ النساء: ٨٢، جاء في تفسير الطبري قوله: " عن الضحاك قال : يتدبرون النظر فيه، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله "[3].

وما أكثر الآيات القرآنية الداعية للتدبر والتفكر في آيات الله تعالى المسطورة والمنظورة فالنستمع في خشوع وتدبر لهذه الآيات البينات، قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٥، وقوله:﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس: ١٠١، وقوله:﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا

(١)مفتاح دار السعادة- محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية-دار الكتب العلمية - بيروت - (١: ١٨٢)

(٢) تفسير ابن كثير - ٦٤/٧

(٣) تفسير الطبري - (٧ / ٢٥٢)

مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ ق:٦- ٨، وقوله:﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾الغاشية: ١٧-٢٠، وقوله:﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ الذاريات:٢٠،٢١، وقوله سبحانه:﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الجاثية: ١٣، وقوله:﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ الروم: ٢٣. كل هذه الآيات وغيرها مما لا يحصى تدعو دعوة صريحة للتفكر والتدبر في آيات الله تعالى في جميع مجالات الحياة، فهل من معتبر:﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ القمر:١٧.

وبشّر القرآن الكريم الذين يستمعون القول فينظرون إليه نظر البصير ويتبعون منه ما يدل على الحق ويرشد إلى طريق العلم والقوة، ولم يكتف القرآن بهذا، بل ذم الغافلين، ونعى عليهم غفلتهم وإعراضهم عن الآيات الكونية التي يشاهدونها في كل لحظة وتطالعهم بدلائلها في كل آونة كما في قوله تعالى:﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ الحج:٤٦، وقوله:﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف:١٧٩، وقوله:﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ يوسف:١٠٥.

وقد قال ابن القيم -رحمه الله - كلاماً طيباً في هذا المجال، قال: "ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ

في يده(تضع) مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة تعرِّفُهُ الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه. "[1]، وصدق رحمه الله، فإن التدبر في كتاب الله مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر.

وقال السعدي رحمه الله: "تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة"[2].

وقال سهل بن عبد الله:" لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه لأنه كلام الله وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله على قلبه، وكلام الله غير مخلوق ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة "[3].

المبحث الثاني

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين-محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية- دار الكتاب العربي – بيروت-الطبعة الثانية، ١٣٩٣ – ١٩٧٣-تحقيق: محمد حامد الفقي مدارج السالكين ٤٥١/١

(٢) تفسير السعدي ١٨٩/١-١٩٠

(٣)مفاتح تدبر القرآن-خالد بن عبد الكريم اللاحم-فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر-الرياض-١٤٢٥هـ (١ / ٤)

غايات ومقاصد البحث العلمي في القرآن الكريم

المطلب الأول: تحقيق عبودية الخالق:

العبودية اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وتظهر أهمية العبادة وفضلها ومكانتها في أنها الغاية التي خلق الله لها الخلق، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات:٥٦، وبها أرسل الرسل كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾النحل:٣٦، وبتحقيقها يكمل المخلوق، وهي الصفة التي وصف الله بها ملائكته وأنبيائه، ونعت بها صفوة خلقه، ووصف بها النبي ﷺ في أكمل أحواله كحال الإسراء، فقال:﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الإسراء:١، ولذلك فمن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه فهو أضل الخلق وأجهلهم، ولو نظرنا لوجدنا أن الدين كله داخل في العبادة، فهو يتضمن الذل والخضوع والعبادة في أصل معناها: الذل، وعبادة الله تشمل الذل والمحبة غايتهما، فإن الذل بلا محبة أو المحبة بلا ذل لا تسمى عبادة، والعبادة أمر اختُص الله به، فلا يعبد غيره، فإن جنس المحبة والطاعة الإرضاء والإيتاء لله ورسوله، أما العبادة وما يناسبها فهي لله وحده.

والإخلاص لازم من لوازم العبودية، فلابد للمسلم أن يخلص في عبادته لخالقه جل وعلا، وهذا ما أمرنا به سبحانه عندما قال:﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة:٥، وغيرها من الآيات، وجاء في حلية طالب العلم: " قال بعض العلماء: العلم صلاة السر، وعبادة القلب، وعليه فإن شرط العبادة إخلاص النية لله سبحانه وتعالى فإن فقَد العلم إخلاص النية، انتقل من أفضل الطاعات إلى أحط المخالفات، ولا شئ يحطم العلم مثل الرياء، رياء شرك، أو رياء إخلاص، وعليه فالتزم التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب، كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سلماً لأغراض وأعراض، من جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سمعة، أو طلب محمدة، أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا

شابت النية، أفسدتها، وذهبت بركة العلم، ولهذا يتعين عليك أن تحمى نيتك من شوب الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمى الحمى"[1].

وكذلك لا بد من الصدق في التوجه بالعبادة للخالق جل شأنه: بأن يبذل المؤمن جهده في امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه كما قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ التوبة ١١٩، ولا بد كذلك من متابعة الرسول ﷺ فيعبد العابد الله تعالى وفق ما شَرَع عزّ وجلّ لا بحسب ما يهوى المخلوق ويبتدع، وهذا هو المقصود باتّباع النبي المرسل من عند الله، فلا بد من الإخلاص والصدق والمتابعة فإذا عُرفت هذه الأمور تبين لنا أن كل ما يضاد هذه التعاريف فهو من العبودية للناس، فالرياء هو عبودية للناس، والشرك عبودية للناس، وترك الأوامر واسخاط الرب مقابل رضى الناس عبودية للناس، وكلّ من قدّم طاعة هواه على طاعة ربه فقد خرج عن مقتضى العبودية، وخالف المنهج المستقيم، ولذلك قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[2]، والعبودية لله تجمع وتتضمن المحبة والخوف والرجاء، فالعبد يحبّ ربّه ويخاف عقابه ويرجو رحمته وثوابه، والعبودية لله شرف للعبد وليست مذلّة كما قال الشاعر:

ومما زادني شرفا وتيهاً * وكدت بأخمصي أطأ الثريا**
دخولي تحت قولك يا عبادي * وأن صيّرت أحمد لي نبيا**

المطلب الثاني

بيان مظاهر قدرة الله تعالى

(١) حلية طالب العلم - بكر أبو زيد- مؤسسة قرطبة ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ - (١ / ٤)

(٢) الجامع الصحيح (صحيح البخاري) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله - دار الشعب- القاهرة-الطبعة: الأولى ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧- كتاب بدء الوحي-- ج٤ /ص ٤١، برقم: ٢٨٨٧

ومن غايات البحث العلمي التي قصد الله تعالى من خلال كتابه الكريم بيان وتوضيح مظاهر قدرته وعظمته في هذا الكون والتي لا تكاد تنقضي، فلو تتبعنا آيات الله تعالى في كتابه الكريم، لا نكاد نجد آية منها تخلو من مظهر من مظاهر عظمته وقدرته.

وجاء في عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن: " وفي القرآن الكريم ما يزيد على ألف آية تتحدث عن معالم هذا الكون، وتذكر مفرداته من: السماوات والأرض، والشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والجبال والبحار والأنهار، والمطر والرعد والبرق ... إلى آخره، وإذا كانت هذه الآيات قد ذكرت تلك المفردات في سياق لفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله في الخلق، استدلالاً على تفرده سبحانه بالربوبية والألوهية، وقياساً عليها أحقية البعث الذي أنكره الكفار، فإنها مع ذلك قد جاءت في أسلوب وعبارة تفتح أمام العقل البشري آفاقاً واسعة للتفكير في دلالاتها عبر عصوره المتعاقبة من بعد نزول القرآن، فيقوم لديه من هذه الدلالات في كل عصر ما يشهد بالحق الذي جاءت به"[1].

وقال الأستاذ العلامة: وهبة الزحيلي: " ومن المعلوم أن إنزال القرآن الكريم هو أول مظاهر قدرة الله وفضله وتوحيده. والمظهر الثاني: أن الله تعالى هو الحاكم المطلق على الناس بالموت، فهو الذي يقبض الأرواح حين انتهاء آجال أصحابها، وهي الوفاة الكبرى، إن في ذلك التوفي التام، وإرسال الروح مرة أخرى لعلامات باهرة على قدرة الله ووحدانيته، من قوم يتفكرون ويتأملون في ذلك..."[2].

ولما كانت هذه المظاهر لا نهاية لها ولا حدود فسنكتفي بذكر نماذج لها فقط للدلالة عليها، ففي قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الرعد:٣ . قال فيها صاحب التفسير القرآني:" بيان لمظاهر قدرة الله في تلك الآيات الكونية المفصلة، فهو سبحانه:﴿ مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي بسطها وذللها،﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي جبالاً راسية، ثابتة، مستقرة، كما ترسو السفن على المرافيء الآمنة، ﴿ وَأَنْهَٰرًا ﴾ أي

(١)عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ـ محمد السيد ـ (١ / ٩٩)

(٢) التفسير الوسيط-د.وهبة بن مصطفى الزحيلي-دار الفكر- دمشق-الطبعة الأولى-١٤٢٢- (٣ / ٢٢٤٣)

وأجرى في هذه الأرض التي بسطها أنهاراً،﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ أي وجعل من كل ثمرة زوجين اثنين، ذكراً وأنثى.. فالثمرة ـ أي ثمرة ـ لا تكون إلا بالتقاء الذكر والأنثى، على أية صورة من صور الالتقاء، سواء في ذلك عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان، فكل مولود هو ثمرة هذا اللقاء، كل ثمرة هي المولود الذي تولّد من الذكر والأنثى!﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ ﴾ أي يلبس الليل النهار، ويجعله غشاء له، يجلّله،ويغطيه،﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ففي كل هذا، آيات ودلائل على وجود الخالق، وعلى قدرته وعلمه .. ولكن هذه الآيات لا تنكشف إلا لمن وجّه إليها بصره، وأعمل فيها فكره .. أما من أعرض عنها، وأغلق عقله وقلبه دونها، فإنه لا يرى من هذه الآيات إلا عوالم جامدة صماء، لا تنطق بشيء، ولا تحدّث عن شي ء!"[1].

وفي قوله سبحانه:﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴾ الحج: (٤٥) ، قال الجزائري في أيسر التفاسير: " ... من هداية الآيات:

(١) تكذيب الرسل والدعاة إلى الحق والخير سنة مطردة في البشر لها عواملها من أبرزها التقليد والمحافظة على المنافع المادية، وظلمات القلب الناشئة عن الشرك والمعاصي .

(٢) مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك الأمم والشعوب الظالمة بعد الإمهال والإعذار "[2].

المطلب الثالث

بيان مكانة العلم والعلماء

لقد رفع الله تعالى شأن العلم وأهله، وبيَّن مكانتهم، ورفع منزلتهم، فقال:

(١) التفسير القرآني للقرآن ـ الدكتور/ عبد الكريم الخطيب- دار الفكر العربي – القاهرة ـ ٧ / ٦٧)

(٢) أيسر التفاسير-للجزائري- مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودي- ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.- (٣ / ١١)

سبحانه وتعالى:﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾المجادلة: ١١. وعظّم الله تعالى شأن العلم وحثّ على طلبه والسعي إليه كما في قوله:﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ العنكبوت:٤٩، ولم يأمر الله نبيه ﷺ بالاستزادة من شيء إلا من العلم، فقال له:﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ طه:١١٤ وقول الرسول ﷺ:« من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»[١]، وقوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٢]وما ذاك إلا لما للعلم من أثر في حياة البشر.

ولقد منع الله المساواة بين العالم والجاهل، لما يختص به العالم من فضيلة العلم ونور المعرفة، فقال سبحانه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الزمر: ٩.

ولقد جاءت نصوص الكتاب والسنة منوهة بفضل العلم وأهله، والحث على تعلمه وكسبه، وشرف الله تعالى هذه الأمة بأن جعلها أمة العلم والعمل معاً، تمييزاً لها عن أمم الظلم والجهل، وجاءت الصيحة الأولى المدوية التي أطلقها الإسلام في أنحاء المعمورة، لتنوه بقيمة العلم والعلماء، وتسمو بقدره، وتجعل أول لبنة في بناء الأفراد والشعوب، وكيان الأمم القراءة والكتابة.

ورفع الله تعالى منزلة العلماء، وجعلهم أهل خشيته فقال:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فاطر: ٢٨، فالخشية: هي التي تحول بين العبد وبين معصية الله، وتدعوه إلى طاعته والسعي في مرضاته. ففي الدر المنثور: " كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله"[٣]، وروى علي بن أبي طلحة عن

(١) صحيح مسلم-أبو الحسين مسلم بن الحجاج-دار الجيل بيروت-باب فَضْل الاجْتِمَاع عَلَى تِلاوَةِ الْقُرْآن-ج٨ /ص٧١،رقم: ٧٠٢٨

(٢)سنن ابن ماجة- ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني- مكتبة أبي المعاطي –المجلد الأول-برقم:٢٢٤

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي - (١٢ / ٢٨٠)

ابن عباس﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ قال: الذين علموا أن الله على كل شي قدير، وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالم، وقال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل، وعن ابن مسعود: كفى بخشية الله تعالى علماً"[1].

وقرن الله تعالى شهادة العلماء بشهادته تعالى وشهادة الملائكة فقال:﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾آل عمران: ١٨، وقيل في سبب نزولها أنها أعظم شهادة في كتاب الله، فقد جاء في تفسير القرطبي: " قال الكلبي: لما ظهر رسول ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان! فلما دخلا على النبي عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال (نعم)، قالا: وأنت أحمد؟ قال: (نعم). قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. فقال لهما رسول الله: (سلاني). فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ "[2]. وعن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)-أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي -تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش-دار الكتب المصرية – القاهرة-الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م - (١٤ / ٣٤١)

(٢)معالم التنزيل (تفسير البغوي)-محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي -المحقق: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش-دار طيبة للنشر والتوزيع-الطبعة الرابعة: ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧م - (٤ / ٤١)

(٣) سنن أبي داود- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني- دار الكتاب العربي - بيروت-باب الحث على طلب العلم- برقم: ٣٦٤٣، سنن الترمذي- باب فضل النفقة على العبادة- برقم: ٢٦٨٢

وبالعلم تبنى الأمجاد، وتشيد الحضارات، وتَسُود الشعوب، بل لا يستطيع المسلم أن يحقق العبودية الخالصة لله على وَفق شرعه، فضلاً عن أن يبني نفسه كما أراد الله أو يقدم لمجتمعه خيراً، أو لأمته عزاً ومجداً ونصراً إلا بالعلم. والعلماء هم الأئمةُ الثقات، والأعلامُ الهداة، مثلُهم في الأرض كمثل النجوم يُهتدَى بها، قال ﷺ: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»[1].

ومن آفات العلم وأسباب محق البركة عنه أن تُطلَب به الرئاسة على الخلق، والتعاظم عليهم، وأن يريد طالبه بعلمه انقياد الناس له، فيُظهر لهم زيادة علمه على العلماء، ليعلو به عليهم، ونحو ذلك، فهذا موعده النار-عياذاً بالله- فقد قال المصطفى ﷺ: «من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»[2]. وفي حلية طالب العلم: " عن سفيان رحمه الله تعالى أنه قال: كنت أوتيت فهم القرآن، فلما قبلت الصرة، سلبته"[3].

هذا غيض من فيض في فضل ومكانة العلم والعلماء تقصر المجلدات والمؤلفات الضخام عن احتوائها، قصدت بذلك لفت الأنظار والتوجه نحو هذا المعين الذي لا ينضب أبداً، وأن مقصد الشريعة في دعوتها إلى العلم بمعناه الشامل واضح جداً باستقراء نصوص القرآن والسنة، وتوجيه العقل البشري إلى مظاهر الكون لمعرفتها ومعرفة قوانينها وتوجيهه إلى أحداث التاريخ ومصائر الأمم للوصول إلى سنن المجتمع البشري، وإلى آفاق النفس للاطلاع على سنن أخلاقها ومختلف ظواهرها.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني-المحقق : السيد أبو المعاطي النوري- عالم الكتب - بيروت-الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م – المجلد الثالث –برقم: (١٢٦٠٠) ١٢٦٢٧

(٢)سنن الترمذي- باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا – برقم: ٢٦٥٤

(٣) حلية طالب العلم - (١ / ٤)

الخاتمة

وبعد أن وقفنا متأملين في دعوة القرآن الكريم الملحة للعلم والتعلم والفكر والتفكر والتدبر في آياته الكريمات نقول: من أحب أن يكون للأنبياء وارثاً وفي مزارعهم حارثاً فليتعلم العلم النافع ففي الحديث الشريف: « العلماء ورثة الأنبياء» وليحضر مجالس العلماء فإنها رياض الجنة، وأن يقصد بعلمه وجه الله تعالى، ونشر العلم، وإحياء الشرع، وبذل الهمة في تحصيل العلوم، وتطهير القلب من كل دنس، وغل، وحسد، وخلق ذميم، وسوء عقيدة، قال الله تعالى:﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا الإسراء:(٣٦)، فبذلك يحصل التهيؤ لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائقه وغوامض حقائقه. وليحذر الأغراض الدنيوية من تحصيل الرئاسة والجاه والمال، والتصدر في المجالس فيحبط العمل، وقد استعاذ النبي ﷺ، من علم لا ينفع، وتوسل بالعلم الذي هو أعظم العبادات، وعلى المشتغلين بالعلم سلوك طريق سلفهم في التواضع والحلم والصبر على الأذى ذاكرين قوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ لقمان:(١٧).